عشق اللغة العربية وتذوق أدبها عند بلاشير (1)

للأستاذة حورية الخمليشي

معطاوي مليكة

تعتبر الترجمة الأدبية ممارسة لنوع خاص من التواصل الثقافي والمعرفي يقتضي نقل نص أدبي أجنبي، يمتاز بطبيعة تخييلية، من لغته وثقافته الأصليتين إلى ثقافة ولغة جديدتين حيث سيواصل الحياة مع متلقين جدد لم يكتب لهم أصلا. على أن هذا الانتقال إذا كان تلبية لحاجة قائمة ومتواصلة في الثقافة المحتضنة، فإنه لا يتم دائماً بالسهولة والسلاسة المتوقعتين، وإنما تحفّه صعوبات وتترتب عنه مجموعة من الانزلاقات. ويؤكد إدمون كاري بأن الترجمة "عمل صعب وخطير، ويتطلب فنية عالية، وليس تكرارًا حرفيًا أو مهارة عقيمة أو نقلا ميكانيكيا، فعبر الكلمات والعبارات التي تبلور عالما من الفكر والعواطف والوجود يقود المترجم قارئه لاكتشاف عالم جديد والدخول إليه"(Cary:1956.16). وتطرح الترجمة قدراً هائلا من القضايا والإشكالات التي نادراً ما تطرحها الممارسات الثقافية الأخرى، خصوصاً إذا تعلّق الأمر بترجمة النص العربي القديم وتأويله، ولعلّ ذلك دليل على الدينامية الاستثنائية التي تتميّز بها ممارسة الترجمة التي رافقت الإنسان منذ القديم إلى الآن تلبية لحاجته للتواصل وضرورة التبادل والتعايش مع الآخر. وبالرغم من أن الترجمة الأدبية مغامرة محفوفة بالمخاطر، فإنها ليست مستحيلة بدليل أن هناك العديد من الترجمات الأدبية الجيّدة التي تفوقت أحياناً على النصوص الأصلية. نأخذ كأمثلة على ذلك ترجمة الشاعر الفرنسي شارل بودلير لحكايات إدغار ألان بو، وترجمة ليرمنتوفلسيرفانتيس ورابلي، وترجمة دوستويفسكي لنصوص بلزاك، وترجمة تولستوي لقصص موباسان، وترجمة تورجنيف لقصص فلوبير ...إلخ. ويلتقي في هذا الإطار كلّ من ريجيسبلاشير وجورج مونان تبنّيهما لفكرة إمكانية الترجمة الأدبية شريطة أن تظل رهينة

بمدى قدرة المترجم على مراعاة طرق الأداء اللغوي والاختلافات الحضارية من خلال إمساكه بدقائق الكلمة وحركة الفكر، والقدرة على إيصالها للقارئ، وهنا لا تبرز تقنية المترجم فقط، ولكن يبرز فنه كذلك .

ولعلّ ترجمة الشعر العربي القديم تتطلّب امتلاك موهبة وحدس كبيرين لما يمتاز به من طاقة جمالية إبداعية تصوّرية كبيرة. ولتسليط الضوء على أهمية الترجمة الأدبية ودورها الفعّال في تلاقح الثقافات، خصّصت الأستاذة الباحثة الأكاديمية حورية الخمليشي(2)، كتابها "ترجمة النص العربي القديم وتأويله عند ريجيسبلاشير"، الصادر عن "الدار العربية للعلوم ناشرون" ببيروت، و"منشورات اختلاف" بالجزائر، و"دار الأمان" بالرباط (2010)، للترجمة الأدبية ولأحد أقطابها الكبار رجيس بلاشير الذي تبنّى أصعب أنواع الترجمة، والذي يُعدّ برأي الباحثة من أنصار الحضارة العربية، ومن دعاة الحرية والتحرّر في الأقطار العربية، خصوصاً أنه شغف بالأدب العربي القديم وقضى حياته بين المغرب والجزائر وفرنسا. وقد تناولت الباحثة في هذا الكتاب، والذي يشكّل في الأصل جزءاً من رسالة جامعية نالت عنها الدكتوراه في الأدب من جامعة محمد الخامس بالرباط، تحت إشراف الدكتور إدريس بلمليح.

إنمفهوم الترجمة الأدبية وإشكالاتها ومواصفاتها وخصائصها، تولدّت عنه برأي المؤلّفة مجموعة من الأسئلة المعرفية من قبيل: "هل النص المترجم خيانة للنص الأصلي أم إبداع؟ ولماذا يضطر بعض القراء إلى الرجوع إلى النص في لغته الأصلية؟ وهل يفقد النص المترجم من العربية فصاحته وبلاغته التي له في لغته الأصلية؟ وهل يؤدي النص المترجم الدور الذي أراده له مبدعه في لغته الأصلية؟ وإلى أي حدّ نجح بلاشير في ترجمة تصوّر القراءة التي قدّمها للأدب العربي؟"(3).

وانطلاقاً من مصاحبتها للدراسات البلاشيرية، قراءةً وترجمةً، فقد طرحت أسئلة أخرى تتعلّق بالاستشراق ودوافعه وأبعاده، ومنها: "لماذا هذا الاستشراق؟ ولماذا هذا الاهتمام بترجمة الأدب العربي؟ وما موقع هذه الترجمات في سياق حركة الاستشراق؟ وإلى أي حدّ نجح بلاشير في رسم صورة ثقافة وحضارة الآخر، وهي حضارة لا تتساوى مع حضارة المركز؟"(4).

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها حاولت الباحثة دراسة المترجمات الأدبية لريجيسبلاشير، وسلّطت الأضواء على ترجمته للقرآن الكريم، وترجمته لنماذج من الشعر والنثر بغية تقليص المسافة

بين الممارسة والتنظير، ولتوضّح للقارئ بأن فعل الترجمة ممارسة نصّية مشروطة بضوابط الترجمة والتأويل، علماً أن الترجمة تأويل في الجوهر على رأي بول ريكور.

وقد قسّمت الباحثة دراستها إلى أربعة أقسام، حيث تناولت في القسم الأول، المعنون بترجمة النص العربي وتأويله عند بلاشير، مفهوم الاستشراق في فصلين، خصّصت الفصل الأول لمفهوم الاستشراق بشكل عامّ وذكّرت باختلاف كثير من الباحثين في تعريف هذا المصطلح تبعاً لمواقفهم، لكنّها ركّزت على تعريف إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق الذي اعتبره كثير من النقاد أفضل ما كتب عن الاستشراق، إذ يعني به " كلّ من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه"(5). كما وضّحت الباحثة مدى اهتمام المستشرقين بترجمة النص العربي القديم وترجمة القرآن الكريم وبيّنت المواقف المختلفة للنقاد العرب من آراء هؤلاء المستشرقين، حيث أشاد بفضلهم طه حسين وتصدّى لهم رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين وآخرون. أما الفصل الثاني فخصّصته للاستشراق الفرنسي والذي يُعتبر بلاشير أحد رموزه الكبار.وتقول الباحثة: "إن ريجيسبلاشير من علماء الاستشراق، الذين استلهموا سحر الشرق، وعشقوا أدبه من أجل أدبية الأدب لا غير، جاعلا من العلم والمعرفة همّه الأساسي. فلم يكن استشراق بلاشير استعماريًا ككوستاف فون كرونباوم، ولم يكن متعصبًا كمرجوليوت، بل تميّز بحبّه وإخلاصه للتراث العربي فألف كتبًا قيّمة عن الأدب العربي، وترجم القرآن الكريم والسيرة النبوية، وكان مؤلفه عن شاعر العروبة أبي الطيب المتنبي، من الكتب العظيمة، التي عرّفت الغرب بأكبر شاعر عربي جرى السكوت عنه زمنا طويلا في الثقافة العالمية"(6). فشرحت منهجيته في تعليم اللغة العربية للأعاجم، وموقفه من بعض القضايا الأدبية في دراسته وترجمته لتاريخ الأدب العربي.

وانتقلت الباحثة في القسم الثاني من الكتاب، المعنون بالممارسة النظرية عند ريجيسبلاشير، والمتكوّن من ثلاثة فصول، إلى رصد الممارسة النظرية عند بلاشير في ترجمته للقرآن الكريم في الفصل الأول. فتناولت مفهوم الترجمة عند بلاشير الذي تميّز عن غيره برصده للفرق الدقيق بين النقل والترجمة والتفسير والتأويل، ثم ذكّرت بالمراحل التاريخية لترجمة القرآن إلى اللغات الأوربية منذ أول ترجمة قام بها مترجمان من مدرسة طليطلة في القرن الثاني عشر الميلادي، إلى ترجمة صدوق مازيغ سنة 1980، مروراً بترجمة بلاشير التي ظهرت سنة 1948-1951، والتي تعتبر أكثر تميّزًا وأكثر تداولا

باللغة الفرنسية حيث "شكلت مدرسة في حدّ ذاتها، إذ كان بلاشير يفضل، حسب جمال الدين بن الشيخ، التنظيم الوظيفي على حساب تركيب المعنى"(7). بعد ذلك تناولت قواعد ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية، فوضّحت منهجية بلاشير في تأويل هذه المعاني، ومدى اتباعه للقواعد، التي وضعها هو أصلا لهذه الترجمة. واسترعى اهتمامها في الفصل الثاني رصد بلاشير لروائع الشعر العربي القديم، دراسةً وترجمةً وتأويلاً، فعرضت بعض آرائه ومواقفه من هذا الشعر، ورصده لمراحل تطوّر الشعرية العربية، كما عرضت المعايير الأساسية التي حدّدها بلاشير لدراسة الشعر العربي والولوج إلى جنانه الخفية، خاصّة دراسته وترجمته لشاعر العروبة أبي الطيب المتنبي، التي رصد من خلالها تطوّر حركة النقد التي تناولت شعر المتنبي بغية أن يصل القراء إلى فهم واضح لشعره؛ فاهتمّ بالمصنفات والدراسات المتنبئية، فأبانت دراسته عن دورها الكبير في جمع وتقويم الحركة النقدية لشعر المتنبي. ومن جهة أخرى، أبدت الباحثة رأيها في بعض القضايا النقدية المتعلّقة بالشعر كالعروض والأوزان؛ فعرضت تاريخ العروض العربي كما قدّمه بلاشير في مقال له بعنوان مساهمة في تاريخ العروض العربي، كما تناولت علاقة العروض بالأوزان عند العرب منذ العصر الجاهلي، كما تطرّق إليها بلاشير في كتابه تاريخ الأدب العربي. أما الفصل الثالث من هذا القسم فخصّصته الباحثة لترجمة النثر العربي الذي يعدّ، حسب بلاشير، "نظاماً إيقاعياً تعبيرياً سبق في ظهوره النثر الأدبي، ولم يكن هذا الشكل الجمالي هو الشعر العروضي، ولكنه نثر إيقاعي ذو فواصل مسجّعة"(8). وقد وضع بلاشير القواعد الخاصّة بترجمة النثر الأدبي استناداً على منهجية تحرّى فيها الكثير من الدقة والنزاهة العلميتين.

أمّا القسم الثالث من هذا الكتاب فيتضمّن الممارسة النصّية عند ريجيسبلاشير في ثلاثة فصول: النص القرآني، والنص الشعري، والنص النثري. وقد وضّحت الباحثة طريقة بلاشير في تأويل معاني النص القرآني، حيث ينطلق من كون القرآن "نصًّا متعاليًا، وتحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أفرته الإنسانية وبجّلته من التحف"(9)، كما أوردت نماذج من النص القرآني بترجمات مختلفة لتقارن بين بلاشير والمترجمين الآخرين وتلاحظ الفرق بينهم، على اعتبار أن كل مترجم تحكمه ثقافته ومرجعياته وبيئته وعوامل أخرى ليس المجال هنا لذكرها. ورصدت الباحثة أيضاً، في الفصل الثاني، ترجمة بلاشير لنماذج من الشعر العربي القديم، فعرضت ترجمته لشعر المتنبي،

وسجّلت إثر ذلك مجموعة من الملاحظات بيّنت من خلالها نقط تفوّق بلاشير ونقط ضعفه في ترجمته لشعر المتنبي. وهذه الترجمة التي وإن لم تصل إلى عمق المكوّن الشعري للمتنبي، فإنها تبقى في بعدها الإنساني والجمالي والفني تمتلك روح العالمية بلغة الآخر. كما عرضت الباحثة نماذج مختلفة من ترجمة الشعر العربي الذي استأثر باهتمام بلاشير، وركّزت على اهتمامه بشعر المرأة، خصوصًا الشاعرات اللواتي تفنّن، في نظره، في غرض الرثاء الذي ازدهر في القرن السادس الميلادي، وعلى عنايته أيضاً بالشعر الذي قيل في المرأة، حتى وإن كان من إنتاج الرجل. وفي الفصل الثالث تناولت نماذج نثرية من أدب المقامة وأدب الأمثال، وعلم المعاجم والموسوعات والمخطوطات وعلم الجغرافيا، نظراً لقيمتها الحضارية، والإنسانية والتاريخية والفكرية.

وهكذا يبدو بلاشير مدرسة أدبية متميّزة في دراسة وترجمة التراث العربي القديم مما جعل الباحثة حورية الخمليشي تخصّص القسم الرابع للمدرسة البلاشيرية في الأدب العربي، وتقسّمه إلى فصلين. خصّصت الفصل الأول لنماذج من أعلام مدرسة بلاشير. أما الفصل الثاني فتضمّن نماذج من امتدادات مدرسة بلاشير في الوطن العربي، ذلك أنه كان لهذه المدرسة دور كبير في تكوين باحثين وعلماء من عرب ومستشرقين، سواء الذين تتلمذوا على يديه مباشرة. أو الذين تتلمذوا على أيدي تلامذته، قاسمهم المشترك هو عشق اللغة وتذوّق جماليتها شعرًا ونثرًا، ثم العناية بالتراث العربي، دراسة وتأويلا وترجمة، والبحث في مكوّناته بجرأة مختلفة. وقد عرّفت الباحثة بسيرة بلاشير، ثم ذكرت بعض أتباع المدرسة البلاشيرية وعرّفت بهم وبمساراتهم العلمية والفكرية وبعلاقتهم برائد المدرسة، منهم جون سوفاجي، وأندري ميكيل، وشارل بيلا، وإبراهيم الكيلاني، وأمجد الطرابلسي، وجمال الدين بن الشيخ، وصالح الأشتر، إضافة إلى ذكرها لنماذج من امتدادات هذه المدرسة ومنهم إدريس بلمليح، وأحمد بوحسن، وعباس ارحيلة، ومحمود المقداد. وهم باحثون لهم إسهامات متنوعة في الأدب بشكل عامّ. وتمتاز كتاباتهم، حسب الباحثة، بالدقة والموضوعية والعمق الفكري لانفتاحهم على لغات وثقافات مختلفة، ولإلمامهم القوي باللغة العربية.

وختمت الباحثة كتابها بعرض النتائج التي توصّلت إليها من خلال دراستها لموضوع ترجمة النص العربي القديم عند ريجيسبلاشير، والتي لخصتها في كون كل ترجمة هي ضرب من التأويل، لكن مفهوم التأويل يختلف من مترجم لآخر، وتختلف دلالته عند العرب عن معناه عند الفرنسيين، وأن

كل قراءة غير تأويلية لنص أدبي هي قراءة مغلقة. كما أن الترجمة جدلية تناصية تربط بين الكاتب والمترجم والمتلقي، لذلك لا يجوز تقويم ترجمة نص أدبي بمقاييس التماثل والتطابق والمعادلة، ذلك أن ترجمة النص الأدبي تستدعي الفهم والشرح والتفسير مع مراعاة السياق، وهي إبداع وإعادة كتابة إبداع وانفتاح وتوليد وتجدّد ووفاء. وقد شهدت مدرسة بلاشير أوج الدراسات العربية المهتمّة بترجمة النص العربي القديم والتعريف به عالماً.

1-يتعلق الأمر بكتاب "ترجمة النص العربي القديم وتأويله عند ريجيسبلاشير".

2-منمؤلفات الأستاذة حورية الخمليشي : كتاب "الشعر المنثور والتحديث الشعري"، وكتاب "لغة وتواصل في رحاب الجامعة"، وكتاب "لغة وتواصل ومنهج"وكتاب "الخطاب الشعري العاشق والإبداع".

3-الخمليشي حورية، ترجمة النص العربي القديم عند ريجيسبلاشير، الدار العربية للعلوم ناشرون،، ط.1، 2010، ص. 6.

4-المرجع السابق، ص. 7

5-إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط. 1، 1981، ص. 38.

6-حورية الخمليشي، المرجع السابق، ص. 7-8

7-المرجع السابق، ص. 55

8-المرجع السابق، ص. 94

9-المرجع السابق، ص. 100